مَفْهُومُ الإِعْجَازِ القُرآنِيْ عِنْدَ الإِمامِ عَلِي بِنْ مُوسى الرِضَا (عَليهِمَا السَلام)

The concept of Qur'anic inimitability according to Imam Ali bin Musa al-Rida (peace be upon them both)

م.د محسن عبد العظيم هادي

Asst.Dr. Mohsen Abdel-Azim Hadi

العراق/ جامعة الكوفة / كلية التربية/ قسم القرآن الكريم

Iraq/University of Kufa/College of Education/Department of the Holy Quran

mohsina.alkhaqani@uokufa.edu.iq

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ البحث:

يُعد الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) أحد أبرز رواد المعرفة الإلهية المتصلة بين السماء والأرض خلفًا لآبائه الطاهرين، فنهل مِن معين علمه مَن وفِق لطلب الحق على يديه، فكان للإمام (عليه السلام) قصب السبق في شتى مناحي العلوم بشكلٍ عام والمباحث القرآنية على وجه الخصوص؛ لمكانة القرآن الكريم في نفسه حتى جسده في أفعاله قبل أقواله، وأداءً لوظيفته في التصدي لبيان مراد الله تعالى من كتابه العظيم، وبيانًا لما يُعين على فهمه من مباحث علمية متخصصة، فجاء هذا البحث معتمدًا على المنهج التحليلي المتضمن للاستقراء والتطبيق؛ ليسلط الضوء على نزرٍ يسير مما أُثر عن الإمام علي الرضا (عليه السلام) من انفراداتٍ معرفية في بيان الإعجاز القرآني، حيث مثّلت فيما بعد أُسسًا معرفيةً لدى علماء المسلمين سواء من الإمامية أو من غيرهم؛ لأهمية مبحث الإعجاز القرآني كونه الأساس والمنطلق في إثبات صدق دعوى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ابتداءً، وقبولها والعمل بها من قِبل المتلقين محصلةً، والوقوف على أسس الإعجاز في ضوء رؤية الإمام الرضا (عليه السلام)، وتشخيصه لها وإزاحة الستار عنها وإقصاء مفاصل اللبس فيها، وتأكيده على وجه الإعجاز القرآني المتفرد زمن النزول وبيان ما له من خصائص، مع بيان عدم نفي الوجوه الاعجازية الأخرى المكتشفة عن طريق العقل تماشيًا مع التطور العلمي الإنساني في مختلف العصور؛ كون القرآن الكريم معجزة خالدة، فكل عصر يكتشف وجه إعجاز بما وسعه من

علم وتطور معرفي، وببيان ذلك تبرز أهمية البحث بالإسهام في رفد الساحة الفكرية والعلمية المعاصرة، بما هو نافع وجديد بقصد الممازجة بين التراث والمعاصرة في الموضوعات القرآنية، والوصول إلى الصورة الحقيقية وفهمها عن طريق أئمة أهل البيت (عليهم السلام) التي انمازت بعمق البحث وقوة الدليل وتنوع الجهات المعرفية في معالجة المشاكل العلمية.

الكلمات المفتاحيّة: مفهوم الإعجاز، الإعجاز القرآني، الإمام الرضا، أسس الإعجاز.

raculous nature of the Qur'an at the time of revelation، while also recognizing that additional dimensions of its miracle unfold gradually through rational inquiry and advances in human knowledge، Since the Qur'an is considered an everlasting miracle، each generation discovers new layers of its inimitability in step with its intellectual and scientific development.

This study's value lies in its effort to connect classical religious thought with contemporary discourse on the Qur'an، By presenting the understanding of Ahl al-Bayt (peace be upon them)، it offers a perspective marked by rigorous analysis، strong evidential grounding، and a broad range of intellectual approaches to theological and scholarly questions.

Keywords : Concept of I'jaz، Quranic I'jaz، Imam Reda، Foundations of I'jaz.

Abstract:

Imam Ali bin Musa al-Rida (peace be upon them) is widely regarded as a leading figure in divine knowledge، serving as a spiritual and intellectual link between heaven and earth through his succession to the line of purified ancestors، He demonstrated profound mastery across multiple disciplines، especially in Quranic scholarship، living in accordance with the Qur'an's teachings both in speech and conduct، To explore his role in elucidating divine meanings and offering deep scholarly interpretations، this study adopts an analytical-inductive approach، focusing on Imam al-Rida's distinctive insights into the concept of Quranic inimitability (I'jāz)، These insights have since become cornerstones for scholars across various Islamic traditions.

Doctrine of I'jāz holds central importance as the primary proof supporting the Prophet Muhammad's (peace be upon him and his pure progeny) claim to prophethood، thereby securing the Qur'an's recognition and authority among its audience، This research investigates the basis of inimitability as articulated by Imam al-Rida، delving into its subtleties and resolving areas of uncertainty، The Imam highlighted the immediate mi-

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين وأفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم على المبعوث رحمة للعالمين محمد النّبيّ الأمين وعلى آله الطّيبين الطّاهرين وأصحابه الغرّ الميامين، أما بعد.

فقد نزل القرآن الكريم من عند الله تعالى على خاتم أنبيائه ورسله نبيّنا محمّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) بوصفه المعجزة الخاتمة الباقية ما بقي الدهر، مسايرة للعصور والمجتمعات على اختلافها وتعدّدها، وأودع سبحانه وتعالى فيه ما من شأنه أنْ يَفِيَ بمتطلّبات العصور المعرفيّة، وأناط اكتشافها بطبيعة ثقافة المتلقّين، ولم يترك الخلق تعصف بهم الأهواء والآراء وتشتّتهم، بل قرن مع القرآن الكريم ثلّةً ممّن لهم القابليّة والاستعداد الكافي للغوص في أعماقه، وبوأهم منزلة علمية سامية واستأمنهم على استخراج كنوزه للناس وما اشتمل عليه من العلوم، وخصّهم سبحانه وتعالى بالعلم وجعلهم عدلًا له، وأثبت تلك المنزلة وهذا الاستئمان تلميحًا وتصريحًا سواءٌ في القرآن الكريم نفسه -القطعيّ الصّدور- أو ممّا صحّ وورده على لسان نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهؤلاء الثّلّة من الخلق هم أهل البيت (عليهم السلام)، فكانوا نِعم الحافظين لما استحفظوا وأفضل الأمناء على ما استودعوا فلم تشح موائدهم ولم يبخلوا بجهدهم فيما يجلي معانيَه ويكشف عن أسراره بقدر وسع المتلقّين منهم وما

ينفعهم ويعينهم على استظهار الحقائق الإلهيّة والكشف عن المرادات الرّبّانيّة، فتناولوا وبيّنوا جملة من العلوم الأساسيّة كالفقه والأصول والتّفسير والمباحث اللّغويّة والمباحث القرآنيّة النّصّيّة الأخرى نحو المحكم والمتشابه والنّاسخ والمنسوخ والعامّ والخاصّ والمطلق والمقيّد والمجمل والمبيّن والمباحث القرآنيّة التّأريخيّة نحو الوحي وأسباب النّزول والمكّيّ والمدنيّ وجمع القرآن الكريم وكلّ ما يتعلّق بتأريخ القرآن الكريم من مباحثَ أخرى، وما جادوا به من تأسيسٍ وتأصيلٍ لِمَا تقدّم ممّا وقف عليه علماء مدرستهم المعطاء.

ويُعَدّ الإمام عليّ بن موسى الرّضا (عليه السلام) ثامن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) وأحد أبرز روّاد المعرفة الإلهيّة المتّصلة بين السّماء والأرض خلفًا لآبائه الطّاهرين، فنهل مِن معين علمه مَن وُفِّق لطلب الحقّ على يديه، فكان للإمام (عليه السلام) قصب السّبق في شتّى مناحي العلوم بصفة عامّة والمباحث القرآنيّة على وجه الخصوص؛ لمكانة القرآن الكريم في نفسه حتّى جسّده في أفعاله قبل أقواله، وأداءً لوظيفته في التّصدّي لبيان مراد الله تعالى من كتابه العظيم، وبيانًا لما يُعين على فهمه من مباحث علمية متخصّصة؛ فجاء هذا البحث متّسمًا بـ(مَفْهُومُ الإِعْجَازِ القُرآنِيّ عِنْدِ الإِمامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسى الرِّضَا (عليهما السلام)؛ معتمدًا على المنهج التّحليليّ المتضمّن للاستقراء والتطبيق؛ ليسلّط الضّوء على نزرٍ يسير ممّا أُثر عن الإمام عليّ الرّضا (عليه السلام) من انفراداتٍ معرفيّة في بعض المباحث القرآنيّة؛ ولا

سيّما في مبحث الإعجاز القرآنيّ؛ وما مثّله فيما بعدُ أُسسًا معرفيّةً لدى علماء المسلمين؛ سواء من الإماميّة أم من غيرهم.

ومن منطلق العمل بمبادئ البحث العلميّ فقد اختصّ المبحث الأوّل للمباحث القرآنيّة عند الإمام عليّ بن موسى الرضا (عليهما السلام)، والثاني لبيان الأسس المنهجيّة لمبحث الإعجاز القرآنيّ، وهذا يحتّم علينا أنْ نتاولَهما معًا بما ورد عنه (عليه السلام) ممّا يُجلي الغوامض ويكشف عن تأصيلٍ فريد سبق به غيره في مباحث علوم القرآن، وكان لمبحث الإعجاز القرآنيّ الأوّليّة لما له من الأهمّيّة البالغة في إثبات نبوّة النّبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وصدق ادّعائه وأحقّيّته بالمحصّلة؛ ليكون بمثابة الأنموذج الأبرز في تناول الإمام للمباحث القرآنية عمومًا.

ولا ندّعي في هذا البحث الإحاطة الشّاملة لكلّ ما ورد عن الإمام الرّضا (عليه السلام) بل هو محاولة جادّة في بيان فضل أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) على الإسلام والمسلمين، وبيان أسبقيّتهم في خوض غمار العلوم القرآنيّة بيانًا وتأصيلًا بوصفهم القيّمين على كتاب الله تعالى، كما أكّد ذلك النّبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث الثّقلين من أنّهما (لن يفترقا) أبدًا، فنسأل الله سبحانه وتعالى أنْ يجعلَنا من خدَمة الثّقلين، الفائزين بشفاعتهما يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم؛ إنّه سميع مجيب، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المبحث الأوّل: المباحث القرآنيّة عند الإمام عليّ بن موسى الرّضا (عليه السلام)

مدخل:

عمل أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) طَوال حياتهم في الهداية والإرشاد ونشر علوم الدين وإقامة الحجج بالاحتجاج على مخالفيهم في العقيدة، وفي زمن الإمام الرّضا (عليه السلام) تحديدًا في نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجريّ بدأ عصر جديد؛ وهو عصر التصنيف والتأصيل والتوثيق للمدوّنات الّتي نقلت مطالب علوم القرآن الكريم وأحكام الدين في تراث أهل البيت (عليهم السلام) عن طريق أصحابهم والثقات الّذين جاءوا من بعدهم وسعوا إلى جمع ذلك التراث وتصنيفه وتبويبه.

فكان للإمام عليٍّ الرّضا (عليه السلام) قصب السّبق في تأصيل أكثر من مبحثٍ من المباحث القرآنيّة؛ وجاء ذلك تبعًا لأمرين؛ الأوّل: الحركة العلميّة الرّائجة الّتي شهدها عصره (عليه السلام)، وكثرة التساؤلات والشّبهات والمناظرات العلميّة بين الأديان وغيرها من العوامل التي ساعدت أنْ يتصدّى الإمام لها ويُبينها ويقف عندها، والأمر الآخر هو اتّساع المقدرة الفكرية عند المتلقي في ذلك العصر -الذي يأتي بالمحصّلة من رواج الحركة العلمية آنذاك- وهو عامل مهمّ في مساعدة المعصوم على تفهيم المتلقّي بقدر طاقته الاستيعابيّة إن جاز لنا القول؛ لأنّ الأئمّة يعملون بمبدأ الأنبياء في تكليم النّاس على قدر عقولهم ومستوى فهمهم.

فلو افترضنا أنّ الأسئلة التي كانت موجّهة إلى الإمام عليّ الرضا (عليه السلام) قد وجّهت في زمان سابق نحو زمان أمير المؤمنين (عليه السلام) لكانت إجاباتها مختلفة في الأسلوب والطّرح والبيان، ولكانت منسجمة مع ما يمكن أن يتماشى مع وقت صدور السّؤال وطبيعة السّائل وما يألفه وما يتحصّله من معارفَ وعلومٍ، من هنا كانت المعارف القرآنيّة الّتي بيّنها الإمام عليٌّ الرّضا (عليه السلام) تختلف كثيرًا عمّا كانت عليه في زمن الأئمّة السّابقين له (عليهم السلام) من حيث الكمّ والنّوع، واتّسمت بالإبداع والوضوح والدّقّة، وهو ما يمكن عدّه من مصاديق الابتكار المعرفيّ عنده (عليه السلام).

فكما كان لأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) الاهتمام البالغ بالقرآن العظيم وعلومه «كان الإمام الرضا (عليه السلام) هو الفكر القرآنيّ ومركز دائرة الموسوعات القرآنيّة النّادرة وقطب رحاها الرّاسخ»[١].

وقد قيل في تحديد المباحث القرآنيّة من أنّها عبارة عن «مباحث تتعلّق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه، وجمعه وكتابته وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخة ودفع الشّبهة ونحو ذلك»[٢]، وجملةً من هذه المباحث القرآنيّة كانت حاضرةً عند الإمام عليّ الرّضا (عليه السلام).

فمن المباحث القرآنيّة عنده (عليه السلام) مبحث تفسير القرآن الكريم والتّأسيس لقواعد فهمه، ومبحث ردّ الشّبهات عن القرآن الكريم، ومبحث لغة القرآن

الكريم وما يتعلّق بأساليبها المتفرّدة وغيرها، ونحن نشير إشارة سريعة إلى بعضها بوصفها إجراءً تطبيقيًّا لما جرى التنظير له، ويمكن دراستها والوقوف على كلّ مبحث منها ببحثٍ خاصّ لاحقًا، وعندئذٍ نشرع بالدّخول إلى القسم الثّاني من البحث؛ وهو القسم الأهمّ في البحث، وهو بيان مفهوم الإعجاز القرآني وأسسه في ضوء ما ورد عن الإمام عليّ الرّضا (عليه السلام).

المطلب الأوّل: التّفسير في ضوء المجاز العقليّ عند الإمام الرّضا (عليه السلام)

عند مطالعتنا لتراث الإمام عليّ الرضا (عليه السلام) التّفسيريّ نجده قد شُحن بمضامين دلالية عالية؛ إذ لم يكتفِ الإمام بتوضيح المراد من بعض الآيات القرآنيّة، وإنّما كان يُؤسّس لبعض المباحث القرآنيّة في طيّات التّفسير، كالتّأصيل للمباحث اللّغويّة القرآنيّة، من دون التّصريح بمسمّى المصطلح؛ إذ إنّ المصطلحات عادةً تأتي متأخّرة عن التّطبيقات الإجرائيّة؛ ومن تلك المصطلحات مصطلح المجاز العقليّ أحد أقسام علم البيان العائد إلى علوم البلاغة العربيّة الثّلاثة (البيان، المعاني، البديع).

فقد ورد عن عبد السّلام بن صالح الهروي[٣] قال: «سأل المأمون الرّضا (عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] فقال (عليه السلام): إنّ غطاء العين لا يمنع من الذكر، والذكر لا يرى بالعيون، ولكن الله عزّ وجلّ شبّه

الكافرين بولاية عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) بالعميان؛ لأنّهم كانوا يستثقلون قول النّبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه ولا يستطيعون سمعًا، فقال المأمون: فرّجت عنّي فرّج الله عنك»[٤].

وممّا يؤكّد أنّ تفسير الذكر هو ولاية أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) هو ما جاء عن ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ [الجنّ: ١٧] قال: «ذكر ربّه ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[٥].

فإنّ الإمام الرّضا (عليه السلام) -في هذه الرّواية- مضافًا إلى ما بيّنه من مبدأ عقديٍّ مهمٍّ وهو فضل ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، نجده يضع بصماته الإبداعيّة في مباحث القرآن الكريم اللّغويّة ويُؤسّس لها تأسيسًا جديدًا لم يسبق إليه أحد من قبلُ دون ذكر المصطلح الّذي جاء متأخّرًا؛ ذلك أنّ «الإمام بهذا التفسير يضع أساس المجاز العقليّ في القرآن الكريم منذ عهد مبكر، ومن قبل أنْ يكتشفَه عبد القاهر الجرجاني[٦] (ت: ٤٧١ هـ) بأكثر من قرنين ونصف من الزمان»[٧].

فقدم لنا الإمام الرضا (عليه السلام) ما يريده الله سبحانه وتعالى من كلامه العظيم عِبر تفسيرٍ أقل ما يُقال عنه: بأنه تفسير ربّانيّ، وهو التّفسير الّذي نقرأ في حناياه بعدًا دلاليًّا مقصودًا، وعادةً ما يرتكز ذلك على رصد جديد في استقراء المجهول وفصول الخطاب؛ وقد تتولّد بنظريّة (معنى المعنى) الّتي نهد منها الغربيّون بعد الإمام بأكثر من ألف عام؛ فتجد في إضاءة الإمام وإفاضته التّشديد على المعنى

الأوّليّ والإيحاء بالمعنى الثّانويّ للآية؛ وذلك ما يتطلّب ذائقة فنّيّة وجهدًا إضافيًا في التفسير[٨]، يثبّت نظريّة المجاز العقليّ من قبْلِ أنْ تكونَ لها اصطلاحها بوقتٍ متأخّر.

المطلب الثاني: بيان المراد برد الآيات المتشابهات إلى المحكمات

من المعروف أنّ النّصّ القرآنيّ قد قسَّم آياته إلى محكمة ومتشابهة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، وذكر المفسّرون جملة من الأمور الّتي تبيّن الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم نذكر من بينها ما له علاقة بردّ المتشابه إلى المحكم فنفترض «لو كان القرآن الكريم كلّه محكمًا لتعلّق النّاس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عمّا يحتاجون فيه إلى النّظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطّلوا الطّريق الّذي به يُتَوصّل إلى معرفة الله وتوحيده، ولكان لا يتبيّن فضل العلماء الّذين يتعبون القرائح في استخراج معاني المتشابه ورد ذلك إلى المحكم»[٩] عند بيان مراد الله.

فقد «وصفت الآية الكريمة جملة آيات محكمات بـ ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ومعنى هذا أنّ الآية المحكمة تشتمل على أمّهات ما في الكتاب من الموضوعات

وبقيّة الآيات متفرّعة عنها، ولازم هذا أنّ الآيات المتشابهة ترجع إلى الآيات المحكمة في مداليلها والمراد منها، ونعني بذلك ارجاع المتشابهات إلى المحكمات لمعرفة معناها الحقيقيّ»[١٠].

فلا بدّ لمن أراد فهْم كتاب الله تعالى أنْ يرجِع ما غمض في معناه إلى ما كان ظاهر المعنى، وعندها ستكون النّتيجة «ليس في القرآن الكريم آية لا نتمكّن من معرفة معناها، والآية إما محكمة بلا واسطة كالمحكمات نفسها، أو محكمة مع الواسطة كالمتشابهات»[١١]، والواسطة هي عمليّة إرجاع المتشابهة إلى المحكمة.

وهذه القاعدة التفسيرية من جملة ما أصّل له الإمام الرضا (عليه السلام) لفهم النّصّ القرآنيّ من طريق خبر الصّدوق عن أبيه، قال حدّثنا عليّ بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه عن أبي حيّون مولى الرّضا (عليه السلام)، قال: «من ردّ متشابه القرآن الكريم إلى محكمه هُدِي إلى صراط مستقيم...»[١٢].

ومن أمثلة ردّ الآيات المتشابهة إلى المحكمة وما تفضيه هذه العملية من نتيجة تقود بالإنسان نحو هدايته إلى صراط مستقيم، هو ما نجده في معالجة فهم آيات صفات الله عزّ وجلّ، التي تشتبه على السّامع من أنّ لله سبحانه بعض الصّفات الّتي تشابه صفات المخلوقين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠]، وهي إحدى الآيات المتشابهة التي يخفى مراد الله تعالى على المتلقّي في حال النّظر إليها

وحدها، فهل لله يد؟ وهل هذه اليد تشبه أيدي النّاس؟ أم لها خصوصيّة تميّزها عن غيرها؟ أم المقصود غير ذلك؟ ففي عدم ردّ هذه الآية إلى آية محكمة فإنّ النّتيجة ستكون الضّلال حتمًا، وهو ما حصل لدى من يعتقد بالتّجسيم المنافي لعظمة الله سبحانه.

ولكنّ الباحث عن الهداية ما إنْ يُرجِعُ هذه الآية إلى آية محكمة –تتحدّث عن الموضوع ذاته– يكون فيها المعنى واحدًا؛ وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] عندها تنتفي كلّ الاحتمالات الباطلة المؤدّية إلى ما لا يليق به سبحانه وتعالى من تجسيم وما شبه ذلك.

المطلب الثّالث: طبيعة إعجاز القرآن الكريم تساير الأزمان

ممّا أسّس له الإمام الرّضا (عليه السلام) هو أنّ القرآن الكريم يتفرّد بميزة خاصّة لا تتوافر في غيره من معجزات الأنبياء السّابقين وهي كونه معجزًا على مدى الأزمان مستمرًّا في إعجازه مع مقوّماته من وقت نزوله إلى قيام السّاعة، بخلاف المعجزات الأخرى؛ إذ كانت محدودة بزمان ومكان وموجّهة إلى فئة خاصّة من البشر.

فقد روى الصّدوق بإسناده عن الفضل بن شاذان[١٣](ت: ٢٦٠هـ) عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنّه قال: «إنّ جميع ما جاء به محمّد بن عبد الله هو الحقّ المبين والتصديق به وبجميع من مضى قبله من رسل الله وأنبيائه وحججه والتصديق

بكتابه الصّادق العزيز الّذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وأنّه المهيمن على الكتب كلّها وأنّه حقّ من فاتحته إلى خاتمته، نؤمن بمحكمه ومتشابهه وخاصّه وعامّه ووعده ووعيده وناسخه ومنسوخه وقصصه وأخباره، لا يقدر أحد من المخلوقين أنْ يأتيَ بمثله»[١٤].

فنجد الإمام الرضا (عليه السلام) يشير في ذيل الرواية إلى مبحث إعجاز القرآن الكريم بعد ذكر بعضٍ من مباحثه النّصّيّة كالمحكم والمتشابه والعامّ والخاصّ والنّاسخ والمنسوخ وغيرها؛ وهو بهذه الإشارة يبيّن أنّ القرآن الكريم خالد على مرّ العصور وهذا الخلود يستلزم أن يكون عنصر التّحدّي قائمًا ما دام القرآن الكريم موجودًا، وهو ما نجده بقوله (عليه السلام): «لايقدر أحد من المخلوقين أن يأتيَ بمثله».

ويتّضح معنى إطلاق كلام الإمام (عليه السلام) من أنّ إعجاز القرآن الكريم وتحدّيَه لم يقتصر على من أُنزل بين ظهرانيهم، بل يشمل جميع من يأتي من بعدهم، ويتعدّى ذلك إلى أنْ يشملَ التّحدّي جميع المخلوقين من وقت نزوله إلى يوم القيامة، وفي ذلك إشارة إلى ما صرّح به النّصّ القرآنيّ بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨]، فهو تحدٍّ مفتوح لجميع المخلوقين مع تعاضدهم فيما بينهم لو استطاعوا.

وهكذا يتّضح دور الإمام الرّضا (عليه السلام) في مجموعة من المباحث القرآنيّة الأخرى الّتي أصّل لها (عليه السلام)، فقد وردت عن الإمام الرضا (عليه السلام) روايات كثيرة في علوم القرآن الكريم والتفسير والفقه والكلام، ومنها صحيفة رواها عن آبائه تسمّى بـ(صحيفة الرّضا)، وله أيضًا (الرّسالة الذّهبيّة) الّتي كتبها للمأمون العبّاسيّ، فأمر المأمون بكتابتها بماء الذّهب؛ ولذلك سُمِّيت بالذّهبيّة وغيرها، وهناك أيضًا ما أملاه الإمام (عليه السلام) على أصحابه وعلى علماء المسلمين آنذاك؛ إذ كانت للإمام مجالسُ تدريس وإملاء، ومنها إجاباته عن المسائل الموجّهة إليه، ومنها أيضًا ما كتبه إلى محمّد بن سنان في جواب مسائله عن علل الأحكام، وكتاب العلل كما نقله عن الفضل بن شاذان[١٥].

وهذه إطلالة سريعة أشرنا بها إلى بعض المباحث القرآنية التي تطرّق إليها الإمام الرّضا (عليه السلام) وأصّل لها مبادئها العلميّة، فكان هذا التّأصيل فيما بعدُ هو العُمدة في عمليّة فهم كتاب الله عزّ وجلّ.

المبحث الثّاني: أسس الإعجاز القرآنيّ عند الإمام الرّضا (عليه السلام)

المطلب الأوّل: المدرك لأُسس الإعجاز القرآنيّ عند الإمام الرّضا (عليه السلام) ودلالاته

يسعى المبحث الثاني من البحث إلى بيان أهمّيّة مبحث الإعجاز القرآنيّ والوقوف على أسسه في ضوء رؤية الإمام الرّضا (عليه السلام)، وتشخيصه لها وإزاحة السّتار عنها وإقصاء مفاصل اللّبس فيها، وبيان ما لها من خصائص؛ كون القرآن الكريم معجزة خالدة، والإعجاز هو الأساس والمنطلق في إثبات صدق دعوى النّبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ابتداءً، وقبولُها، وعمَلُ المتلقّين بها محصلةً.

فنتبدِئ هذا المبحث ببيان معنى الأُسس، وبالرّجوع إلى جذر (الأسس) اللّغويّ نجده يعود إلى الهمزة والسّين الذي «يدلّ على الأصل والشّيء الوطيد الثّابت، فالأُسّ أصل البناء، وجمعه آساس، ويقال للواحد أساس بقصر الألف، والجمع أُسُسٌ»[١٦]، فالأُسّ ما يتأسّس عليه غيره ولا يتأسّس هو على غيره.

ويمكن بيان المعنى الاصطلاحيّ المراد توظيفه بالبحث بأنّ الأُسس تعني «الأصول الثابتة لبناءٍ معرفيٍّ ما، الّتي ترتبط مع بعضها ولا يُمكن فصلها؛ إذ كلّ أساس منها يُسهِم في عملية رسم شكل البناء النّهائيّ»[١٧].

من هنا نستطيع القول: إنّ أسس الإعجاز القرآنيّ هي الأصول الثابتة التي لا بدّ من أنْ تكونَ مرتبطةً ومجتمعة مع بعضها؛ كي ينتصبَ عليها بناء الإعجاز القرآنيّ في شكله النّهائيّ، وإذا ما انخرم أحد تلك الأسس فإنّه سيفقد جزءًا من هيكليّة بنائه، والعلاقة الدائرة بينها هي علاقة ثابتة، فسنقف على تلك الأُسس كما بيّنها الإمام عليٌّ الرّضا (عليه السلام).

فقد كان الإمام عليّ بن موسى الرّضا (عليهما السلام) أوّل من نبّه إلى هذه الأُسس فيما أُثر عنه من روايات ذات المضامين العالية، ونحن نقف على خبر ابن السّكّيّت[18](ت:٢٤٤هـ) المرويّ عن الحسين بن محمد، عن أحمد بن محمّد السّياري، عن أبي يعقوب البغداديّ قال: قال ابن السّكّيّت لأبي الحسن (عليه السلام): «لماذا بعث الله موسى بن عمران (عليه السلام) بالعصا ويده البيضاء وآلة السّحر؟ وبعث عيسى بآلة الطّبّ؟ وبعث محمّدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى جميع الأنبياء- بالكلام والخطب؟ فقال أبو الحسن (عليه السلام): إنّ الله لمّا بعث موسى (عليه السلام) كان الغالب على أهل عصره السّحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم، وإنّ الله بعث عيسى (عليه السلام) في وقت قد ظهرت فيه الزّمانات واحتاج النّاس إلى الطّبّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيى لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم، وإنّ الله بعث محمّدًا (صلى الله عليه وآله وسلم) في

وقت كان الغالب على أهل عصره الخُطب والكلام -وأظنّه قال الشّعر- فأتاهم من عند الله من مواعظه وحِكَمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم، قال: فقال ابن السّكّيّت: تالله ما رأيت مثلك قطُّ، فما الحجّة على الخلق اليوم؟ قال: فقال (عليه السلام): العقل، يعرف به الصّادق على الله فيصدقه والكاذب على الله فيكذبه، قال: فقال ابن السّكّيّت: هذا والله هو الجواب»[١٩].

وبنظرة تأمُّل لمضامين الرّواية نجد هناك دلالاتٍ متعدّدةً نشير إلى بعضها؛ فمنها اقتصار الإمام الرّضا (عليه السلام) على ذكر ثلاثة أنبياء فقط، وهي الإجابة عمّا كان قد حَدَّدهُ السّائلُ -ابن السّكّيّت- باعتبار أنهّ يجيب بحسب ما طُلِب منه ومقدرة السّائل على استيعاب الجواب وفهمِه، وطلبًا للاختصار المُوفي بالغرض.

ومناسبة جواب الإمام (عليه السلام) في تحديد مصاديق المعجزة مع ما ذكره السّائل، فلم يذكر الإمام مصاديق معجزة موسى؛ لأنّ السّائل ذكر بعضها فكان جواب الإمام (عليه السلام) مناسبًا لِمَا ذكره السّائل في سؤاله، على حين لم يذكر السّائل مصاديق معجزة عيسى، بل كان ذكر المصاديق ضروريًّا في جواب الإمام (عليه السلام)، وهو (إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص)، وكذلك في ذكره (سلام الله عليه) لما تتّصف به معجزة النّبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومناسبة ذلك كلّه مع ما ورد في النّصّ القرآنيّ من ذكر للمصاديق.

كما أنّ هناك دلالةً في اختلاف تعبير السّائل عن معجزة موسى بـ(آلة السّحر) الّتي لم ترِد بهذا التّعبير في القرآن الكريم، عمّا استشهد به الإمام (عليه السلام) من المضامين القرآنيّة المتحدّثة عن معجزات الأنبياء المذكورين في سؤال السّائل، منها تصريح القرآن الكريم بمعجزات النّبيّ عيسى (عليه السلام) في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله عزّ وجلّ، واقتصار الإمام (عليه السلام) على ذكر ذلك فحسب، مع أنّ النّصّ القرآنيّ يذكر أكثر من مصداق لمعجزات النّبيّ عيسى والمتمثّلة بقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، [آل عمران: ٤٩].

ومن دلالات ألفاظ رواية الإمام (عليه السلام) وصف القرآن الكريم بما يتضمّن من حِكم ومواعظ، وهو عين ما صرّح به النّصّ القرآني ووصفه بهذه الصّفة بأكثر من موطن، منها قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ﴾ [الإسراء: ٣٩] وغيرها من النّصوص الحاوية للمواعظ الربانية.

نص الرواية	نوع المعجِز	نبيه	ما يقابله
فأتاهم من عند الله... وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم	العصا	موسى (عليه السلام)	السّحر
فأتاهم من عند الله... ما أبطل به قولهم وأثبت به الحجّة عليهم	القرآن	محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)	الكلام

وبذكر وجه المقارنة بين معجزات بعض الأنبياء وبين معجزة القرآن العظيم، نجد الإمام (عليه السلام)، يصرّح بوجه الشَبَه بين ما أبطل سحر قوم موسى (عليه السلام) وبين ما أبطل قول العرب بتعبيره عن النّبيّ موسى أوّلًا، ثمّ بتعبيره عن النّبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثانيًا بقوله:

فمن المناسب أنْ نعقدَ مقارنة بسيطة بين كيفيّة إبطال سحر السّحرة في زمن النّبيّ موسى (عليه السلام) وبين كيفيّة إبطال قول العرب في زمن النّبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، مع الاختلاف بين ما هو سحرٌ فعلًا –الّذي جاء به قوم موسى– وبين ما هو سحرٌ بالقول –إنْ جاز لنا التّعبير– كان في وقت بعثة النّبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو قل: أوجه التّشابه بين السّحر الفعليّ والقوليّ.

فكما أنّ السّحر يخدع أعين المتلقّين له فيعتقدون بظاهره مع مخالفته للواقع كذلك بعض الخطب والكلام والشّعر يخدع الأسماع ويسحر المتلقّي، ويؤثر

فيه كما يؤثر السّحر فيعتقد بجميل مظهره مع مجانبته للصّواب غالبًا حتّى قيل: (الشّعر أعذبه أكذبه) وكما يُنقل عن النّبيّ (ﷺ) قوله: «إنّ من البيان لسحرًا»[٢٠] بخلاف القرآن الكريم الذي جمع أعلى مراتب العذوبة مع اكتنازه للمعاني والحقائق والحكم والمواعظ -التي أشار إليها الإمام الرّضا (عليه السلام)- وهناك الكثير من الشّواهد والأمثلة التّطبيقيّة لبعض أقوال العرب في الجاهليّة الباطلة مع سباكة نظمها الظّاهريّ وقبولها عند المتلقّي وتأثّره بعذوبتها وكأنّها تسحره.

وعند الوقوف على حديث النّبيّ (ﷺ) بشيء من التّفكّر نجد قوله: «إنّ من البيان لسحرًا»، خرج على طريق المجاز «والمراد به أنّ البيان قد يخدع بتزويقه وزخارفه وحسن معارضه ومطالعه، حتّى يستنزل الإنسان من حال الغضب، والمخاشنة إلى حال الرّضا والملاينة، وينزع حُمّات السّخائم، ويفسخ عقود العزائم، ويكبح الجامح حتّى يرجع، ويسفّ بالمحلِّق حيث يقع، ويعود بالخصم الضّالع موافقًا، وبالضد الأبعد مقاربًا»[٢١].

فسمّى النّبيّ (ﷺ) بعض البيان سحرًا؛ لأنّ صاحبه يوضح الشّيء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه وبليغ عبارته، وإنّما سمّاه سحرًا لوجهين؛ الأوّل: أنّ ذلك الكلام لِلُطفِه وحسنه استمال القلوب، فأشبه السّحر الّذي يستميل القلوب، الآخر: أنّ المقتدر على البيان يكون قادرًا على تحسين ما يكون قبيحًا وتقبيح ما يكون حسنًا؛ فذلك يشبه عمل السّاحر من هذا الوجه [٢٢].

فالسّاحر هو الّذي يصنع أشياءَ، ويوهمك أنّها حقيقة وهي ليست بحقيقة؛ فالله تعالى شاء أنْ يُغيِّرَ من حقيقة العصا فجعلها أفعى، أمّا سحر قوم فرعون فهو لا يغيِّر حقيقة الأشياء، بل يوهم مَنْ يراها بأنّها تغيّرت، والسّحر يقتضي ساحرًا، ويقتضي مسحورًا، ويقتضي عمليّة السّحر ذاتها، لكن معجزة موسى ليست كذلك؛ لأنّها لا تُغيّر من الرّائي، بل تغيّر من حقيقة المرئيّ فعلًا، على حين؛ يحدث التّخييل في عينَي المسحور، من هنا يتبيّن غباء كفّار قريش حين اتّهموا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه ساحر، يسحر النّاس، فيخرج الولد على أبيه وأهله، ويجعل العبيد يتمرّدون على سادتهم، ولو كان رسول الله ساحرًا، فلِمَ لَمْ يُسحَر مَن قالوا هذا الاتّهام؟ وبقاء مَن يقول بمثل هذا الاتّهام دليل على أنّ مسألة الإيمان بالمنهج وبالرّسول لا علاقة لها بالسّحر[٢٣].

وهكذا عند استنطاق كلام الإمام (عليه السلام) الوارد في هذه الرّواية نقف على مسائلَ علميّةٍ كثيرةٍ قد أبدع فيها (عليه السلام)؛ لِمَا جاء من تأصّيلٍ لمجموعة من أُسس الإعجاز القرآنيّ؛ منها:

١. أن تكون المعجزة صادرة عن الله تعالى ولا شأن للنّبيّ بصيرورتها.

٢. وأن تجريَ على يد نبيّ من أنبياء الله تعالى دون غيرهم من الأولياء والصّالحين.

٣. أن تكون مؤيِّدةً لهم في إثبات دعواهم.

٤. وأن تكونَ خارقة للعادة.

٥. ومتضمّنة لعنصر التّحدّي فيما برع فيه القوم وقت حدوثه.

٦. وتوجيهها لعلماء عصرها لإقامة الحجّة الدّائمة بها عليهم وعلى من يأتي من بعدهم.

٧. وعدم مجاراتها وعجزهم عن معارضتها.

وكلّ واحدة ممّا ذُكر تمثّل أساسًا من أُسس الإعجاز القرآنيّ عند الإمام الرّضا (عليه السلام)؛ وهذا ما سنقف عليه بشيء من التّفصيل في المطالب الآتية.

المطلب الثّاني: اختصاص علماء العصر في مواجهة تحدّي المعجزة

واضحٌ أنّ الإمام الرّضا (عليه السلام) أشار إلى ضرورة اشتمال معجزات الأنبياء –الّذين ذكرت أسماؤهم في الرّواية في الأقلّ– على عنصرَي الخارقيّة للعادة والتّحدّي لأقوامهم؛ لكي تكونَ أقوى في الحجّة وأظهر في البرهان وأصدق في المدَّعَى.

فلا بدّ للإنسان أنْ يميِّزَ ما هو خارق ممّا ليس كذلك؛ ليتسنّى له معرفة المعجز الّذي يؤدّي بدوره وظيفة إقناعيّة لدى المتلقّي، في مَن ادّعى أمر النّبوة واتّصاله بالسّماء، وهو أمر خارج نطاق أدوات التّحقّق إلّا من طريق المعجز الخارق للعادة، فوجب –والحال هذه– أنْ يكونَ الإنسان مطّلِعًا على العادات الطّبيعيّة وعارفًا بها ومُطّلِعًا على العادات المستقرّة والمستمرّة «وذلك معلوم عند العقلاء، فإذا انتقضت بذلك لم يخفَ على أحدٍ، ألا ترى أنّ أحدنا لا

يشكّ في طلوع الشّمس من مشرقها ولا يعرفون خلقًا ولِد إلّا مِن وطْءٍ، فإذا شاهدوا طلوعها من مغربها أو خُلق حيٌّ من غير ذكر أو أنثى علموا أنّه خارق للعادة»[٢٤].

على حين يتجلى عنصر التّحدّي بأجلى صورِهِ عندما يكون قائمًا على أساسٍ منطقيّ بين العقلاء؛ وهو اشتراك المتّحَدِين بمقوّمات عناصر التّحدّي نفسها، فلو تحدّى إنسانٌ متعلِّمٌ بمدى سرعته للقراءة والكتابة لكمّيّة كبيرة من الصّفحات شخصًا أمّيًّا عديم المعرفة في فنّ القراءة والكتابة ولا يكاد يميّز بين اللّغات بعضها عن بعض ولا يعرف الحروف من الأساس؛ فإنّ مثل هذا التّحدّي سيكون موضع سخرية وامتهان، ولا فخر فيه ولا غلبة للإنسان الّذي يدّعي التّعلّم، بخلاف تحدّيه لشخصٍ له مكانته من العلم والمعرفة والاشتهار بسرعة القراءة والكتابة، عندها سيلقى كلّ الاحترام والاعتزاز والفخر في حال تحدّيه والتّغلّب عليه.

ونحن نطّلع على ما يرويه لنا القرآن الكريم في بعض معجزات الأنبياء كيف توجّهت إلى علماء القوم خاصّة دون عوامّهم؛ «لأنّ الخاصّة إذا بخعت بالطّاعة، وقهرتها الحجّة، وعرفت موضع العجز والقوّة، وفصل ما بين الآية والحيلة، كان أنجع للعامّة، وأجدر أنْ لا يبقى في أنفسهم بقيّة»[٢٥] شكٌّ من أنّ ما جاء به النّبيّ خارق للعادة أو غير ذلك.

وهذا ما سبق إليه الإمام عليٌّ الرّضا (عليه السلام) في تأصيله لأساسٍ من أُسس المعجزة وهو: أنّ المعجزة تتوجّه إلى فئة العلماء من القوم وقتها؛ فالقرآن الكريم بوصفه معجزة كان موجّهًا إلى أصحاب الكعب الأعلى في فنون البلاغة والفصاحة؛ أي: إلى علماء ذلك العصر دون غيرهم –إن جاز لنا القول– إذ إنّ عوامّ النّاس أو مَن لا يعرف فنون العربيّة لا قِبَل لهم بالمعارضة والتّحدّي وهم معذورون بعدم القدرة على التّمييز بين ما هو خارق للعادة أو لا، ففاقد الشيء لا يعطيه –كما يقال–، هذه من جهة، ومن جهة أخرى أنّ العلماء إذا ما عجزوا عن المعارضة والتّحدّي فمن هو دونهم بالعلم يكون أعجزَ، وعندها تكون لله تعالى الحجّة البالغة على الخلق في أنّ العلماء من الأمّة لم يقدروا فكيف بعوامِّها، وفي عدم قدرة العلماء أدلُّ دليل على أنّ ما جاء به النّبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) معجزًا خارقًا للعادة.

ولعلّ السّبب في توجّه التحدي بالمعجزة إلى العلماء المتخصّصين في العلوم والفنون المشابهة لها، هو أنّ العالم بعلمٍ ما قد يظهر علمه على أقرانه من العلماء حتّى يشهدَ له أهل التّخصّص –طوعًا أو كرهًا– بأنّه الأفضل من بينهم في ذلك الوقت، وبعد ذلك ينبري له أحدهم ويُظهر من علمه ما يفوق ما أظهره ويتعدّاه فيتصدّر اللّاحق ويغلب السّابق، وسواءٌ أكان هذا الأمر بقصدٍ أم بدونه فإنّه يشبه إلى حدٍّ ما وقوع التّحدّي فيما بينهم بما اختصّوا به من علم.

وعند مجيء المعجزة فإنّها تتوجّه إلى جميع العلماء المتخصّصين أوّلًا وإلى من فاق علمه على أقرانه ثانيًا، فتتحدّاهم بأنْ يأتوا بمثلها، على أنّ هذا التّحدّي واقعٌ وقوعًا عمليًّا فيما بينهم بما اختصّوا به، وهي طريقة عقلائيّة في إثبات الأفضل والشّهادة له بذلك، كما هو الحال في الأسواق والنّوادي الّتي كانت تُعقَد لتمييز الشّعر والخطب من كلام العرب أيّام الجاهليّة وقُبيل نزول القرآن الكريم؛ لأنّ فصحاء العرب في ذلك الوقت « كانوا يلبسون كلامهم ما قدروا عليه من حلية الفصاحة والبلاغة، ويزيّنونه ما يوجب التّفوُّق والبراعة، ويعمدون فيه ما يوجب طباقه بمقتضى الحال وارتقاؤه إلى أعلى مدارج الكمال، ويقصدون فيه أنواع المحسّنات اللّفظيّة والمعنويّة وأنحاء بدايع النّكت العربيّة وتناسب العبارات والاستعارات ولطائف التّخيّلات والمجازات ومحاسن الكنايات والتشبيهات، إلى غير ذلك من الأُمور الّتي تزيد في الكلام دقّة وسحرًا وفي القلب ابتهاجًا وانبساطًا وسرورًا، ويجعلونه كالعروس العارية عن مقابح العيوب التي ينفتح إليها عيون الظّواهر وبصائر القلوب وكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتفاخرون ويطلبون المعارضة بالمثل ويعتقدون الفضل لمن جاء بالأحسن منه»[٢٦]، وكأنّهم في تحدٍّ مستمرٍّ فيما بينهم حتّى نزل القرآن الكريم وجاء بما لا قِبل لهم به ولم يعرفوا مثله من قبل بشهادة كبرائهم، فتحداهم وجاء بما لا يستطيعون الإتيان بمثله وتغلب عليهم.

المطلب الثّالث: التّناسب النّوعيّ بين المعجزة وأرقى فنون العصر

ممّا أصّل له الإمام الرّضا (عليه السلام) من أُسسٍ علميّة في مبحث الإعجازعمومًا هو التّلازم بين علوم العصر الغالبة من حيث التمكُّنُ والتّفننُ والكثرةُ، وبين نوع المعجزة الصّادرة عن النّبيّ، وهذا واضح عند ذكر مصاديق المعجزات بالنّظر إلى طبيعة العلوم والفنون المتداولة في وقتها، وتغلب تلك المعجزات على جميع التقدّم العلميّ بصفة الخارقيّة للمعتاد في عالم الطّبيعة.

فكانت معجزات الأنبياء تأتي في إطار ما يعرفه أقوامهم بل فيما فاقوا فيه معرفةً وإتقانًا؛ لما في ذلك من حكمة، «فمن أحكم الحكمة إرسال كلّ نبيّ بما يفحم أعجب الأمور عندهم، ويبطل أقوى الأشياء في ظنّهم»[٢٧]، وباطّلاع سريع لما ورد عن معجزات الأنبياء في القرآن الكريم نجد «أن الله تعالى إنّما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشّهير أبرع ما يكون في زمن النّبيّ الّذي أراد إظهاره»[٢٨].

فمثلًا معجزة النّبيّ موسى (عليه السلام) أرسله الله سبحانه وتعالى إلى قوم قد نالوا في السّحر درجة وشأوًا بعيدًا حتّى امتلأت البلاد منهم، والسّحر له حدّ ينتهي إليه لا يتجاوزه؛ فالسّاحر لا يستطيع أنْ يحوِّلَ قطعة ورق إلى فئة نقديّة (حقيقة) بل (يخيّل) لك ذلك فإذا غاب عنك عادت إلى الحقيقة فإذا بها قطعة ورق، فالسّحرة يلقون حبالهم وعصيَّهم أمام موسى فيخيّل إليه أنّها تسعى؛

وذلك لأنّها لم تتحوّل حقيقة وإنما تحوّلت خيالًا، وحين ألقى موسى (عليه السلام) عصاه لم يقل الله: يخيّل إليه أنّها تسعى، وإنّما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠]؛ ذلكم أنّها تحوّلت إلى ثعبان حقًّا، وهذا لا يمكن حدوثه في عالم السّحر، إذًا جاءت معجزة موسى (عليه السلام) من جنس ما برع فيه قومه وإذا عجز عنه أولئك فهم عن غيره ممّا لم يبرعوا فيه أعجز؛ ولهذا كان أوّل من أدرك الإعجاز هم السّحرة أنفسهم، أدركوا من فورهم أنّ معجزة موسى (عليه السلام) ليست بسحر، وأنّ السّحر لا يصل إلى درجتها وأنّها لا يمكن أنْ تكونَ من موسى بل هي من ربّ موسى؛ لذلك لم يقل السّحرة آمنّا بموسى بل: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، وإذا كانت من ربّه فإنّما أظهرها على يديه لتكون حجّة على صدقه فأذعنوا من فورهم واستولى الإيمان على قلوبهم ولم يستأذنوا أحدًا؛ لأنّ ما أدركوا أقوى من أن يتركَ لهم فرصة للتّردّد والتّشاور[٢٩].

فكانت المعجزة تشبه في طبيعتها السّحر إلى حدٍّ ما ولكنّها ليست بسحر، مع أنّ الله عزّ وجلّ قادرٌ على أنْ يأتيَهم بأنواعٍ أخرى من المعجزات الخارقة للعادات الطّبيعيّة؛ وذلك «لأنّه لو كان أتاهم بكلّ شيء، ولم يأتِهم بمعارضة السّحر حتّى يفصلَ بين الحجّة والحيلة؛ لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلّعة؛ ولاعَتَلَ به أصحاب الأشغاب؛ ولشغلوا به بال الضّعيف، ولكنّ الله تعالى

جدُّه، أراد حسم الدّاء، وقطع المادّة، وأنْ لا يجدَ المُبطِلون متعلّقًا ولا إلى اختداع الضّعفاء سبيلًا[٣٠].

وكذلك الحال بالنّسبة إلى معجزة النّبيّ عيسى (عليه السلام)؛ فقد نما وازدهر الطّب في عهده وبرع فيه قومه، والطّب له حده الذي ينتهي عنده في علاج الأبدان، فهو يعالجها ما دامت الروح فيها لم تخرج، أما إذا خرجت فقد عجز الطّب والأطباء، ومن هنا بدأت معجزة عيسى (عليه السلام) حيث قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيَ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فمعجزته (عليه السلام) من جنس الطّب الذي برع فيه قومه وإذا عجزوا عن الإتيان بمثل ما برعوا فيه فهم عن سواه أعجز، وبهذا تكون حجّته على قومه أقوى وأظهر[٣١].

أمّا ما اشتُهر به النّاس في وقت نزول القرآن الكريم وبعثة النّبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) فيهم؛ فقد «كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلّها في صدورهم، حُسن البيان، ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به، فحين استحكمت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم، وكثُر شعراؤهم، وفاق النّاس خطباؤهم، بعثه الله عزّ وجلّ، فتحدّاهم بما كانوا لا يشكّون أنّهم يقدرون على أكثرَ منه فلم يزل يقرعهم بعجزهم، حتّى تبيّن ذلك

لضعفائهم وعوامّهم، كما تبيّن لأقويائهم وخواصّهم»[٣٢] الّذين لم يجازفوا في سمعتهم ويقولوا ما لا يداني القرآن الكريم منزلة وعظمة ورفعة.

وممّا تقدّم يتّضح أنّ «براعة الإعجاز تتجلّى في ملاءمة قضيّة الإعجاز لكلّ نبيّ بما يلائم عصره، وينسجم مع فنون جيله، ويُعزَى إلى حياة قومه فيما هو طبيعيّ أو خارق دون تحدٍّ، فلأوّل مرّة في تأريخ القرآن الكريم نشاهد الإمام الرّضا (عليه السلام) يرى بإعجاز القرآن الكريم أنّ معجزة كلّ نبيّ تتماشى باتّجاه ما يلائم عصر ذلك النّبيّ وبما ينسجم مع فنون جيله ويتقارب من تجارب زمنه، ويعزى إلى حياة قومه ولو في وجهٍ بارزٍ من الوجوه النّاظرة إلى مدارك الإعجاز[٣٣].

وكلّ ذلك يؤيّد أنّ ما جاء به الإمام الرّضا (عليه السلام) هو تأصيلٌ معرفيٌّ لأهمّ مبحثٍ من المباحث القرآنيّة وهو مبحث الإعجاز القرآني، وأسّس له أُسسًا تكون معتمدة عند من يأتي من علماء المسلمين على اختلاف مشاربهم فيما بعدُ.

المطلب الرّابع: قيام الحجّة بالقرآن الكريم على العرب وبعجز العرب على غيرهم

لمّا كان القرآن الكريم معجزة النّبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) فجاء متحدّيًا الفصحاء من العرب بمعارضته وأنْ يأتوا بمثله أو بعضه (سورة واحدة) مع دعوة من شاءوا إن استطاعوا، ولكنّهم أذعنوا وأقرّوا بعجزهم أمام هذا التّحدّي؛ لأنّه

كلام الخالق الّذي لا يدانيه كلام جميع المخلوقين؛ فألقى الحجّة عليهم عن طريق الإعجاز، فكان الإعجاز بوصفه (حجّة) بالغة عليهم بما كان في مستوى إدراك الجميع بلا شكّ.

ويُروى أنّ كفّار قريش أرادوا أنْ يتعاطَوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البُرّ، ولحوم الضّأن، وسلاف الخمر، أربعين يومًا؛ لتصفوَ أذهانهم، فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين، وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا؛ لأنّهم أدركوا أنّ في هذه الآية من بدائع الفصاحة، وعجائب البلاغة، ما لا يقارب كلام البشر، ولا يدانيه منها أنّه خرج مخرج الأمر، وإنْ كانت الأرض والسّماء من الجماد؛ ليكونَ أدلّ على الاقتدار، ومنها: حسن تقابل المعنى، وائتلاف الألفاظ، ومنها: حسن البيان في تصوير الحال، ومنها: الإيجاز من غير إخلال، إلى غير ذلك ممّا يعلمه مَن تدبّره، وله معرفة بكلام العرب، ومحاوراتهم[٣٤].

وعلى ذلك نجد الإمام الرضا (عليه السلام) قد بيّن كيف يكون الإعجاز القرآنيّ حجّة على العرب ولم يقتصر عليهم فحسب، بل تعدّاه إلى غيرهم، بخلاف معجزات الأنبياء السّابقين الّتي جاءت حجّة على أقوامهم فحسب؛ ففي

الرّواية عن الإمام الرضا (عليه السلام)؛ إذ ينقل الراوي فيقول ما نصّه: «ذكر الرّضا (عليه السلام) يومًا القرآن الكريم فعظّم الحجّة فيه والآية والمعجزة في نظمه، قال: هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى وطريقته المثلى، المؤدّي إلى الجنّة، والمُنجِي من النّار، لا يخلق على الأزمنة ولا يغثّ على الألسنة؛ لأنّه لم يُجعل لزمان دون زمان، بل جُعل دليل البرهان والحجّة على كلّ إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[٣٥].

الدّليل ــ إذًا ــ على «قيام الحجّة بالقرآن الكريم على العرب أنّه لمّا جاء محمّد صلّى الله عليه [وآله] وسلّم به وقال: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] قال كلّ فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتّى لا آتي بمثله؟ فلمّا تأمّله وتدبّره، ميّز منه ما ميّز الوليد بن المغيرة حين قال: (والله ما هو بالشّعر ولا هو بالكهانة ولا بالجنون) وعرف كلّ فصيح بينه وبين نفسه أنّه لا يقدر بشر على مثله، فصحّ عنده أنّه من عند الله تعالى، فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره ففرّ إلى القتال، ورضي بسفك الدّم عجزًا عن المعارضة»[٣٦].

والمطّلِع على تأريخ العرب يُنبِئ أنّهم أمّة معروفة بالبلاغة والفصاحة مع ذلك لم يكونوا قادرين على معارضة القرآن الكريم بل إنّ « الإتيان بمثل القرآن الكريم لم يكن قطُّ في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أنّ

الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثمّ لا يزال ينقحها حولًا كاملًا، ثمّ تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامّة فيبدل فيها وينقّح، ثمّ لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثمّ أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبيّن لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضعَ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذّوق وجودة القريحة وميز الكلام»[٣٧].

من هنا صار الأمر واضحًا في إشارة الإمام الرضا (عليه السلام) إلى أنّ معجزة القرآن الكريم أقامت الحجّة البالغة على العرب جميعًا؛ لأنّه من جنس ما برعوا فيه ففهموه ولم يتسنَّ لهم معارضته وتحديّه والإتيان بمثله.

كما قد قامت الحجّة البالغة على النّاس أجمعين منذ وقت نزوله إلى قيام يوم الدّين؛ وذلك بما جاء في الرّواية المتقدّمة آنفًا الواردة عن الإمام الرّضا (عليه السلام) وفيها ما نصّه: «بل جُعل دليل البرهان والحجّة على كلّ إنسان»، فنجد كلام الإمام (عليه السلام) فيه عموم الإنسان بتوظيفه إحدى أدوات العموم (كلّ) ممّا يقتضي استغراق عموم جنس الإنسان ودخوله في قيام الحجّة بالقرآن الكريم عليه في أيّ مكان كان أو زمان، ولم يقتصر كلامه (سلام الله عليه) على العرب الأوائل الّذين نزل بظهرانيهم القرآن الكريم ولم يختصَّ بهم دون

غيرهم بل كلّ إنسان، حتّى الإنسان في غابر الأزمان في حال لو قُدِّر له إدراك القرآن الكريم ومعاصرته.

وقد ذكر الجاحظ[٣٨] (ت: ٢٥٥هـ) وهو يبيّن أنّ إعجاز القرآن العظيم لا يحتاج إلى دليل كونه أمرًا واقعًا وحقيقةً تأريخيّةً ثابتةً؛ وأدلُّ دليل عليه ما كان العرب عليه من حالة حين تحدّاهم بمواجهته ومعارضته؛ إذ يقول ما نصّه: «بعث الله محمّدًا أكثر ما كانت العرب شاعرًا وخطيبًا وأحكم ما كانت لغة وأشدّ ما كانت عدّة؛ فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، ودعاهم بالحجة وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن الكريم ويدعوهم صباحًا ومساءً إلى أن يعارضوه بسورة واحدة أو بآيات يسيرة وكلّما ازداد تحدّيًا لهم بها لعجزهم عنها تكشّف عن نقصهم ما كان مستورًا، وظهر منه ما كان خفيًّا فحين لم يجدوا حيلة قالوا: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف؛ فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: (فهاتوها مفتريات) فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، فدلّ ذلك على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستحالة لغتهم وسهولة ذلك عليهم؛ لأنّ سورة واحدة وآيات يسيرة كان أنقص لقوله وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه وأسرع في تفريق أصحابه من بذل النّفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال، وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيدة العجيب

والرجز الفاخر والخطب الطّوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الأسجاع والمزدوج واللّفظ المنثور، ثمّ يتحدّى به أقصاهم بعد أنْ ظهر عجز أدناهم فمحال -أكرمك الله- أن يجتمع هؤلاء كلُّهم على الغلط في الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البيّن مع التقريع بالنّقص والتوقيف على العجز وهم أشدّ الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثًا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السّبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه»[٣٩].

وممّا تقدّم يتضح كيف أن العرب عجزوا عن مواجهة التحدي، على ما كانوا عليه من فصاحة وبلاغة؛ كونهم المقصودون بالتحدي دون غيرهم؛ لما يمتلكون من مقومات التحدي دون غيرهم ويسر ذلك عليهم، فكيف بمن هو دونهم بالفضل ومستوى الفصاحة والبلاغة ممن يأتي من بعدهم ولا يتحصل على شيءٍ منها إلا بالتحصيل والمدارسة والتعلّم والدربة، عندها سيكون الجواب المنطقي أنه إذا عجز العرب الذين كانت سليقتهم وفطرتهم تنبئ عن ذلك المستوى الرفيع من البلاغة والفصاحة فسيكون من هو دونهم ممن يلحقهم أعجز بما لا يمكن معه المجاراة أو المعارضة والتحدّي على مرّ العصور إلى يوم القيامة.

فلذلك صار القرآن الكريم حجّة على النّاس إلى يوم الدِّين؛ فقد قامت الحجة على العرب بعجز فصحائهم عن معارضة القرآن الكريم، وبالتبع قامت الحجّة على من جاء بعدهم بعجز العرب أنفسهم، إذ كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة ولهم الكعب الأعلى في ذلك، وقامت بهم الحجّة على أهل العالم، فإن عجزوا فغيرهم أعجز.

المطلب الخامس: اختصاص وصف الإعجاز القرآنيّ بالعقليّة

هناك وظيفة للعقل في معرفة المعجزة بعد وقت صدورها في حال لم يشهدها الإنسان في عصرها، ولكن النّقل يأتي تاليًا لوظيفة العقل كونه خارج ذات المكلَّف؛ فلا بدّ من الوقوف على كلمة الإمام الرّضا (عليه السلام) في الرواية المتقدّمة المتطرقة لمسألة حجّيّة العقل وعلاقته بالإعجاز الواردة في سؤال الراوي وجواب الإمام فيما جاء بالنّصّ: «تالله ما رأيت مثلك قطُّ، فما الحجة على الخلق اليوم؟ قال: فقال (عليه السلام): العقل، يعرف به الصّادق على الله فيصدقه والكاذب على الله فيكذبه».

يتبيّن سبْق الإمام (عليه السلام) بتأصيله المعرفيّ لأُسس الإعجاز القرآنيّ؛ لِمَا له من مكانة علمية خاصّة استمدّها ممّن جعله إمامًا للمؤمنين في زمانه، فكان امتدادًا لمن سبقه من آبائه الطّاهرين، ويتّضح أنّه «لمّا وقف ابن السّكّيت على سبب اختصاص كلِّ نبيٍّ بإعجاز مخصوص من كلام معدن الرِّسالة مدحه بقوله (ما

رأيت مثلك قطُّ) يعني في العلوم وحضور الجواب، مصدِّرًا بالقسم ترويجًا للمدح وتنبيهًا على أنّه من صميم القلب لا من باب الإطراء وظاهر اللّسان كما هو شأن أكثر المادحين، أو بكلمة التعجّب إشعارًا بأنَّ تفوُّقه (عليه السلام) على غيره بلغ حدًّا يعجز العقول عن الوصول إليه، وعن إدراك كمّيّته وسببه»[٤٠].

وكان المقصود من كلام الإمام (عليه السلام) هو التّنبيه على أنّ «العقل حجّة الله على عباده وعلى كمال تفطّن العقلاء ولطافة قرايحهم حتّى تمكّنوا على تحصيل الإيمان بالله واليوم الآخر، وبالصّادق الأمين من غير مشاهدة معجزات وملاحظة كرامات، بل لا يبعد القول بأنّ تأثير العقل بالإذعان أقوى وأشدّ من تأثير المعجزات فيه؛ لأنّ تأثيره يوجب انقياد القلب وانشراح الصّدر وانكشاف البصيرة بخلاف تأثيرها فإنّه يوجب الانقياد من غير تثبّت ورسوخ فحسب؛ ولذلك كثير ممّن آمن بنبيّنا (صلى الله عليه وآله وسلم) بمشاهدة الآيات والمعجزات ارتدّوا بعده، وكثير ممّن آمن بموسى (على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام) بمشاهدة معجزاته طلبوا منه بعد الخروج من البحر أنْ يجعلَ لهم أصنامًا آلهة وعبدوا عجلًا جسدًا له خوار؛ كلُّ ذلك لضعف عقولهم وقلّة بصيرتهم وعدم تثبّتهم ورسوخهم في الإيمان، وأمّا المؤمن بنور العقل والمذعن بمقتضاه فهو أثبت من الجبال الرَّواسي، ومن هاهنا يظهر التفاوت بين الحجّتين والبون بينهما بعد المشرقين»[٤١].

والله سبحانه وتعالى خلق العقل وجعله في حالة تقدّم ورُقيّ؛ فجعله الحجّة على الإنسان فيما بعد زمن المعجزات، ومن هنا يتضح فيما قيل من أنّ «أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّيّة لبَلادتهم، وقلّة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمّة عقليّة، لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم؛ ولأنّ هذه الشّريعة لمّا كانت باقيةً على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقليّة الباقية؛ ليراها ذوو البصائر[٤٢].

ومن المعلوم أنّ معجزات الأنبياء السّابقين جميعها حسّيّة، إلّا معجزة القرآن الكريم؛ لأنّ معجزة كلّ نبيّ شيء ورسالته شيء آخر، كما هي الحال في معجزة النّبي موسى (عليه السلام) فكانت في العصا واليد البيضاء، ولكن رسالته هي كتاب التوراة، وكذلك هي الحال في معجزة النّبيّ عيسى(عليه السلام) الّتي تمثلت في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، ولكن كانت رسالته هي كتاب الإنجيل، على حين؛ نبيّنا محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنّ معجزته عين رسالته، ورسالته عين معجزته فاتّحدتا في القرآن العظيم كونه الرسالة والمعجزة العقليّة الخالدة على مرّ العصور، ومنشأ العجز عن مجاراة الخلق للقرآن الكريم هو ذاتيّ؛ أيْ: من داخل القرآن الكريم لا شيء من خارجه كما ظنّ بعض العلماء القائلين بمفهوم الصَّرفة، فهو «إنّما كان معجزًا خارقًا للعادة لاختصاصه بالفصاحة المفرطة في هذا النّظم المخصوص دون الفصاحة بانفرادها ودون النّظم بانفراده ودون الصَّرفة»[٤٣].

فالقرآن الكريم معجزٌ بنظمه وتأليفه وتقديمه للمعاني بأسلوب فريد، كما هو معجزٌ أيضًا بوجوه متعدّدة ومتكثّرة بحسب قدرة المتلقّين له المعرفيّة في استكناه تلك الوجوه، والعبرة ليست بتعدّدها وتكثُّرها، فلا الزّيادة فيها تثبت الإعجاز القرآنيّ –كونه يصحّ بثبوت أحدها– ولا القليل من هذه الوجوه – على فرض مناقشة بعضها أو ردّه– يؤثر ذلك في أصل الإعجاز القرآنيّ؛ ولكن الواقع العلميّ والعمليّ للنّصّ القرآنيّ أنّه يساير الأزمان وما وصلت إليه من تقدّم معرفيّ؛ فإذا ما وظِّفت المعارف والعلوم العقلية في عملية فهمه؛ فإنّها حتمًا ستثمر بالتوصّل إلى وجوه إعجازيّة جديدة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

من هنا يتبيّن أنّ وجوه الإعجاز كثيرة ومتعدّدة، مع أنّ أكثر الوجوه معرفة هو الوجه البلاغيّ، ولكن إعجازه لا ينحصر في ذلك، بل هو المعجزة الرّبّانيّة الخالدة، والبرهان النّاطق على نبوّة من أُنزل إليه في كلّ زمان ومكان وبوجوه متعدّدة.

وممّا تقدّم يتّضح ما كان في تأكيد الإمام عليٍّ الرضا (عليه السلام) وجهَ الإعجاز القرآنيّ المتفرّد وقت النّزول وهو الوجه اللّغويّ مع عدم نفي الوجوه الإعجازيّة الأخرى المكتشفة عن طريق العقل بعد وقت النّزول، وما لهذا

الوجه الإعجازيّ من خصائصَ كونه ظاهر في كلّ آيات القرآن الكريم، ومناسب لوقت النّزول، كما هو جارٍ في العصور اللّاحقة، زيادةً على ذلك فإنّ الوجوه الإعجازيّة الأخرى تتعلّق به؛ بوصفه الأداة والنّصّ الحامل لدلالات تلك الوجوه المكتشفة لاحقًا؛ ليتناسب تعدد وجوه الإعجاز القرآني مع كون القرآن الكريم معجزة عقلية خالدة؛ فكلّ عصر يكتشف وجهًا بما وسعه من علم وتطوّر معرفيّ؛ تماشيًا مع التّطوّر العلميّ الإنسانيّ المستمرّ... رزقنا الله تعالى التّمسّك بالقرآن الكريم وخدمته والسّير على هديه، ورزقنا شفاعته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين.

الخاتمة:

بعد الانتهاء من بحث مفهوم الإعجاز القرآنيّ عند الإمام عليّ بن موسى الرضا (عليهما السلام)، نصل إلى ذكر أبرز النّتائج التي توصّل إليها البحث، في ضمن انفراداتٍ معرفيّةٍ أدّت إلى تأصيلٍ فريدٍ سبق به الإمام عليّ الرّضا (عليه السلام) غيره في المباحث القرآنيّة عمومًا ومبحث الإعجاز القرآنيّ خصوصًا، فكانت على النّحو الآتي:

١- كان للإمام عليّ الرضا (عليه السلام) قصب السّبق في بيان ونشر المعارف الإسلامية؛ تبعًا للحركة العلمية الرائجة التي شهدها عصره واتساع قابلية المتلقّي الفكرية في ذلك العصر.

٢- أسّس الإمام الرضا (عليه السلام) لبعض المباحث القرآنية في طيات تفسيره لبعض الآيات القرآنيّة من دون التصريح بمسمى المصطلحات، ومن ذلك تأسيسه للمجاز العقليّ.

٣- تأسيس الإمام الرضا (عليه السلام) لقاعدة تفسيرية من طريق ردّ الآيات المتشابهات إلى المحكمات؛ لتسهم في فهم النّص القرآني.

٤- أوضح الإمام الرضا (عليه السلام) أنّ القرآن الكريم معجزٌ على مدى الأزمان من وقت نزوله إلى قيام السّاعة؛ ليسجل تفرده بميزة خاصّة لا تتوافر في غيره من معجزات الأنبياء السّابقين.

٥- أشار الإمام الرضا (عليه السلام) إلى ضرورة اشتمال المعجزة على عنصرَي

الخارقيّة للعادة والتحدّي لأقوام الأنبياء؛ لكي تكونَ أقوى في الحجة وأظهر في البرهان.

٦- أفصح الإمام الرضا (عليه السلام) عن كون المعجزة صادرة عن الله تعالى ولا شأن للنّبيّ بصيرورتها ونوعها، وأنها تجري على يد النّبي، وتكون مؤيّدة له في إثبات دعواه.

٧- سبق الإمام عليّ الرضا (عليه السلام) لتأصيله بأن تكون المعجزة متوجّهةً لفئة العلماء من القوم.

٨- بيّن الإمام علي الرضا (عليه السلام) ضرورة التلازم بين علوم العصر الغالبة وبين نوع المعجزة.

٩- أكّد الإمام عليّ الرضا (عليه السلام) قيام الحجة بالقرآن الكريم على العرب المالكين لمقوّمات التحدّي وقت نزوله، وقيام الحجّة على غير العرب بعجز العرب.

١٠- ثبّت الإمام عليّ الرّضا (عليه السلام) تفرّد القرآن الكريم بصفة العقليّة؛ فهو معجزٌ عقليّ.

١١- ركّز الإمام عليّ الرضا (عليه السلام) في وجه الإعجاز اللّغويّ المتفرّد وقت النّزول، مع عدم نفي الوجوه الإعجازية الأخرى المكتشفة بحسب القدرة المعرفيّة للمتلقّي.

الهوامش:

١- الصّغير، الإمام علي الرضا: ١١٥.

٢- الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١/ ٣١.

٣- هو أبو الصّلت، عبد السّلام بن صالح الهروي، من أصحاب الإمام الرضا (عليه السلام)، وثقه جمع منهم النّجاشي والعلّامة وأغلب الذين ترجموه من العامة. ط: الخلاف: هامش: ١/ ٤٤١.

٤- الصّدوق، عيون أخبار الرضا: ١/ ١٢٤.

٥- المجلسي، بحار الأنوار: ٣٥/ ٣٩٥.

٦- عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر: واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللّغة، من أهل جرجان له شعر رقيق، من كتبه: أسرار البلاغة؛ دلائل الإعجاز؛ المغني؛ المقتصد؛ إعجاز القرآن، وغيرها. ظ: الأعلام للزركلي: ٤/ ٤٩.

٧- الصّغير، الامام علي الرضا: ١١٨.

٨- ظ: م، ن: ١١٥.

٩- الطّبرسي، جوامع الجامع: ١/ ٢٦٥.

١٠- الطّباطبائي، القرآن في الإسلام: ٣٦.

١١- م، ن: ٣٦.

١٢- الصّدوق، عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٩٠.

١٣- أبو محمد الفضل بن شاذان النّيشابوري، متكلم، فقيه، جليل القدر، له كتب مصنفات منها :كتاب الفرائض الكبير، كتاب الفرائض الصّغير، وكتاب الطّلاق وغيرها. ظ: الطّوسي، الخلاف: هامش ٤/ ٦٦.

١٤- (١١) م، ن: ٢/ ١٢٩

١٥- م، ن: ١/ ٩٥.

١٦- ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: ١/ ٤٥.

١٧- الباحث، اطروحة ظاهرة التداعي: ٢٥٧.

١٨- ابن السّكيت بكسر السّين وشد الكاف هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقي الأهوازي الشيعي أحد أئمة اللّغة والأدب، ذكره كثير من المؤرخين وأثنوا عليه وكان ثقة جليلًا من عظماء الشيعة ويُعد من خواص الإمامين التقيين عليهما السّلام وكان حامل لواء علم العربية والأدب والشعر واللّغة والنّحو، له تصانيف كثيرة مفيدة منها: كتاب تهذيب الألفاظ وكتاب إصلاح المنطق، قتله المتوكل في خامس شهر رجب سنة (٢٤٤هـ) وسببه أن المتوكل قال له يومًا: أيما أحب إليك ابناي هذان أي المعتز والمؤيد أم الحسن والحسين عليهما السّلام؟ فقال ابن السّكيت: والله إن قنبرًا خادم علي بن أبي طالب خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكل للأتراك: سلوا لسانه من قفاه ففعلوا فمات، وقيل: أثنى على الحسن والحسين (عليهما السلام) ولم يذكر ابنيه فأمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه فحمل إلى داره فمات بعد غد ذلك اليوم رحمة الله عليه. ظ: الكليني، الكافي: هامش ١/ ٢٤، الحموي، معجم الأدباء: ٦/ ٢٨٤١.

١٩- الكليني، الأصول من الكافي: ١/ ٢٤-٢٥، ظ: الصّدوق، عيون أخبار الرضا: ٢/ ٨٥-٨٦.

٢٠- الصّدوق، الأمالي: ٧١٨، ظ: المجلسي، بحار الأنوار: ٦٠/ ٣.

٢١- الشريف الرضي، المجازات النّبوية: ١١٥-١١٦.

٢٢- ظ: المجلسي، بحار الأنوار: ٥٦/ ٢٧٨.

٢٣- ظ: الشعراوي، تفسير الشعراوي: ٩/ ٥٦٧٨.

٢٤- الطّوسي، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: ٢٥٦.

٢٥- الجاحظ، الرسائل: ٢٧٨-٢٨٠.

٢٦- المازندراني، شرح أصول الكافي: ١/ ٢٩٧-٢٩٨.

٢٧- الجاحظ، الرسائل: ٢٧٨-٢٨٠.

٢٨- ابن عطية، المحرر الوجيز: ١/ ٥٣.

٢٩- الرومي، فهد، دراسات في علوم القرآن: ٨.

٣٠- الجاحظ، الرسائل: ٢٧٨-٢٨٠.

٣١- ظ: الرومي، دراسات في علوم القرآن: ٨.

٣٢- الجاحظ، الرسائل: ٢٧٨-٢٨٠.

٣٣- ظ: الصّغير، الامام علي الرضا: ١١١.

٣٤- الطّبرسي، مجمع البيان: ٥/ ٢٨٢.

٣٥- الصّدوق، عيون أخبار الرضا: ١/ ١٣٧، ظ: عطاردي، مسند الإمام الرضا (عليه السلام): ١/ ٣٠٩.

٣٦- ابن عطية، المحرر الوجيز: ١/ ٥٣.

٣٧- م، ن: ١/ ٥٢.

٣٨- هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، البصري، المعتزلي، المعروف بالجاحظ (ابو عثمان) عالم، اديب، مشارك في انواع من العلوم، ولد بالبصرة، واخذ النّحو عن الاخفش، واخذ الكلام عن النّظّام، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد، له تصانيف كثيرة. ظ: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين: ٨/ ٧.

٣٩- السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ١١٩.

٤٠- المازندراني، شرح أصول الكافي: ١/ ٢٩٩.

٤١- م، ن: ١/ ٣٠١.

٤٢- السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٣١١

٤٣- الطّوسي، الاقتصاد فيما يتعلق بالأعتقاد: ١٧٣.

المصادر والمراجع:

١. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السّلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.

٢. ابن فارس؛ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(ت: ٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللّغة، تح: عبد السّلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣. الباحث، محسن عبد العظيم هادي، ظاهرة التداعي وأثرها في فهم النّص القرآني عند المتلقي، اطروحة دكتوراه بإشراف: أ.م.د قاسم كتاب العيساوي، جامعة الكوفة- كلية الفقه، ٢٠١٩م.

٤. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت: ٢٥٥هـ)، رسائل الجاحظ، تح: عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

٥. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت: ٦٢٦هـ)، معجم الأدباء(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٦. الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط١٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٧. الزركشي؛ بدر الدين محمد بن عبد الله (ت ٩٦٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ط١، (١٩٨٨م).

٨. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي (ت: ١٣٩٦ هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٩. السّيوطي؛ جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السّيوطي(ت: ٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تح: سعيد المندوب، دار الفكر - لبنان، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

١٠. الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي البغدادي (ت: ٤٠٦هـ)، المجازات النّبوية، تحقيق وشرح: طه محمد الزيني، منشورات مكتبة بصيرتي – قم.

١١. الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ)، تفسير الشعراوي (الخواطر)، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

١٢. الصّدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، (ت٣٨١هـ)، عيون أخبار الرضا، صححه وقدم له وعلق عليه: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

١٣. الصّغير، الدكتور محمد حسين علي، الإمام علي الرضا (عليه السلام)-قيادة

الأمة وولاية العهد، مؤسسة البلاغ للطباعه والنّشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

١٤. الطّباطبائي، محمد حسين (ت: ١٤٠٢هـ) القرآن في الإسلام، تعريب السّيد أحمد الحسيني، د.ط، ب.ت.

١٥. الطّبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت: ٥٣٨هـ) تفسير جوامع الجامع، تح: مؤسسة النّشر الإسلامي، مؤسسة النّشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط١، ١٤١٨ه.

١٦. الطّبرسي، مجمع البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ١٣٧٩هـ.

١٧. الطّوسي، أبو علي محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

١٨. الطّوسي، الخلاف، تح: السّيد علي الخراساني، السّيد جواد الشهرستاني، الشيخ مهدي طه نجف، مؤسسة النّشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٤هـ.

١٩. عطاردي، عزيز الله، مسند الإمام الرضا ﷺ، المؤتمر العالمي الإمام الرضا، ربيع الآخر ١٤٠٦هـ.

٢٠. كحالة، عمر رضا (ت: ١٩٨٧م)، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي بيروت، د ت.

٢١. الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت: ٣٢٩هـ)، الأصول من الكافي، تح: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية – طهران، ط٥، ١٣٦٣ه ش.

٢٢. المازندراني؛ مولي محمد صالح (ت: ١٠٨١هـ)، شرح أصول الكافي، ضبط وتصحيح: السّيد علي عاشور، دار احياء التراث العربي، بيروت _ لبنان، ط١، ١٤٢١ هـ_ ٢٠٠٠ م.

٢٣. المجلسي؛ محمد باقر (ت: ١١١١هـ) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م.